

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

Manifestations of the spiritual education in sufism yakouta text.

الدكتور الحسين سريدي¹

¹المدرسة العليا للأساتذة، بشار (الجزائر).

sridi.elhosseyn@ensbechar.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/27 تاريخ القبول: 2023/08/05 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص:

تعد قصيدة الياقوتة مظهراً للتربية الروحية، إذ نسعى من خلال البحث إلى تبيان تجلياتها الشائعة في غرض التصوف؛ بالتركيز على الطهارة الروحية، ومعالمها. تتمثل نتائج البحث في إبراز عقيدة المتصوف، وإيمانه، بالإضافة إلى الكشف عن سبيله في تأديب أهل العلم، وتقديس الله سبحانه، بالتعطش إلى معرفته في الأحوال، والمقامات. كلمات مفتاحية: الياقوتة، التربية، التصوف، الأحوال، المقامات.

Abstract:

Yakouta poem is a manifestation of Spiritual education, through research, we seek to elucidate its common manifestations of Sufism by focusing on spiritual purity and its features.

The results of the research are the show of the doctrine of the mystic, his belief, as well as his way of disciplining the scholars, the Reverence for God , the thirst for knowing him in the conditions and stations.

Keywords: Yakouta, education, sufism, conditions, stations.

*المؤلف المرسل: الدكتور الحسين سريدي.

1. مقدمة:

تتمثل التَّربِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ في تفعيل السُّلوكات الحضاريَّة، الكفيلة ببناء مجتمعات ذات صلة وطيدة بالتُّراث الإسلامي، وتقديس قضاياها الرَّمائيَّة إلى شحذ الهمم، ومجاهدة النفوس للتَّعلُّق بالله، وتمجيد نهج نبيِّه محمد صلَّى الله عليه وسلم في مراعاة أخلاق طالب العلم، وشيخه على حدِّ سواء.

لكن الإشكالية التي تطرح نفسها في هذا السيَّاق: هل يمكن التَّعايش بين الطَّهارة الرُّوحِيَّة في نص الياقوتة و غرض التَّصوُّف؟، هل التركيز على المضامين الأخلاقية لعبادة الشيخ كافٍ لإظهار نقطة التَّماس بين قصيدة الياقوتة والأحوال والمقامات التي أشاد بها أهل التَّصوُّف، وخاصته؟.

يمكن استقامة المجتمع، وتسوية أحوال العامَّة من النَّاس بعِصمة الشيوخ وأهل الدِّين المريدين وطلبة العلم من كلّ أساليب الزيغ والانحراف، بما في ذلك نهج سبيل التَّوَعِيَّة والإرشاد، المتجلَّيان في دواعي النظم الوارد على شكل قصائد تضمن تحلِّي فئة الشباب بالدرجة الأولى بمكارم الأخلاق، بالإضافة إلى نشر الفضائل، والتنفير من الرذائل، إذ كان لقصيدة الياقوتة حصد الأسد في ذلك.

يتحقّق سبيل الشيخ بتأديب المريد إمّا بتصفية قلبه، وتطهير نفسه؛ لما في ذلك من كنوز ربّانية لملازمة طريق الله. أو بملازمة مجالس الذكر لمعرفة أسرار الحكمة، القاضية بمعرفة الطَّهارة الرُّوحِيَّة، التي بدورها تنقّر من الخبائث، وترغّب في أعمال الخير التي تحاسب النفوس، وتبعدها عن الهوى، واللَّهو؛ لتصفو رقاب أصحابها من الشُّرور، ويزيد إيمانها، لتخلد في محبة الله، وأتباع طريق الحق. تنحصر أهداف البحث في تسليط الضوء على أهم القضايا المُبْطَنَة في قصيدة الياقوتة؛ بعدّها مناخاً قائماً على تربية النفوس، وإظهار ما لها، وما عليها لتكتمل عباداتها، ويستقر تأثيرها في أذهان القُرَّاء، حتى تتعبّد لهم الطرق في تغذية أواصر المحبَّة، وترسيخ قيم التَّكافل الاجتماعي في أوساط أهل الله وخاصته؛

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

بالعمل يداً واحدة على تبيان الحاجة إلى الأفكار الصوفية، وكيفيات غرسها بين المريدين وشيوخه، ومن ثمّة توصيلها بأبسط السبل لأهل العلم.

وعلى هذا النحو حصرنا البحث في منهجية أساسها: تجليات التصوف في قصيدة الياقوتة، بالاعتماد على ما جادت به قريحة سيدي الشيخ السماحي من ألفاظ شتى؛ حيث ركزنا على أمارات المتصوف، وأحواله. مروراً إلى: الياقوتة وطهارة الروح؛ إذ جمعنا بين دعائم الطهارة الروحية، وكمال المتصوف لما لهما من صلة ببعضهما البعض، وختمنا الدراسة ببيان أهم نتائج البحث، وبعض الاقتراحات المناسبة لتماشي غرض التّصوف مع الرُّقي الإسلامي، والحضاري.

2. تجليات التّصوّف في الياقوتة:

1.2 أمارات المتصوّف:

يعدُّ التّصوّف عكوفاً على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، بالإضافة إلى الزهد فيما يُقِلُّ عليه الناس، من لذة وجاه ومال والإنفراد عن الخلق بالخلوة والعبادة. (ابن خلدون، 1989، صفحة 467)

انفطر الصّوفيون حول تمجيد الحياة الآخروية؛ باعتزال ملذات الدُّنيا وشهواتها؛ مراعاة لضوابط الشرع، وإيماناً بتمجيد الحياة الباقية، والخلود في طاعة علّام الغيوب، والسير وفق خطى الصالحين الأخيار؛ لما في ذلك من محبة ربانيّة تتناقض وعيشة النكد التي يعيشها المُبجّلون لمتاع الحياة الدنيوية.

صاحب القصيدة المسماة بالياقوتة هو الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي السّماحة ابن أبي ليلى بن أبي يحيى بن عيسى بن معمر بن سليمان (...). اشتهر بعدة أسماء غير اسمه الحقيقي، منها: سيدي الشيخ وهو الأكثر شهرةً. (خليفة، صفحة د. ت)

اشتهر صاحب الياقوتة بسيدي الشيخ؛ لاقتفاء جملة من الآثار البينة التي جعلته محط عناية أهل زمانه من ذوي الهمم والمعالى؛ فكان له الفضل أن جعل

الدكتور الحسين سردي.

الناس يتمرسون على الخصال الحميدة التي تربي الأجيال، وتغرس في النشء قيم الشريعة الإسلامية، التي لا يزيغ عنها إلا هالك، ومن ثمة أنشأ زاوية اتبع فيها أهل العلم طريقه التي اصطلح عليها: الطريقة الشيخية.

وقد وسّع الشيخ في علمه، ومشاربه، ووضع الطريقة الشيخية، التي تفرّعت عن الساذلية، وهذا ما جعله محلّ انتقاد رفقائه القدامى الذين درسوا معه في زاوية السهلي، وحتى يتميز عنهم فكّر في نظم نص يتضمّن تجاربه خاضعاً متدلاًّ لرب الملكوت، مذكّراً بالشيخوخ، داعياً إلى الامتثال بمناقبهم في منظومة سمّاها بالياقوتة. (طواهرية، 2008، صفحة 13)

نشأ الخلاف بين سيدي الشيخ، وأهل زمانه من طالبي العلم؛ لعدم اتفاقهم في المناهل، والمشارب؛ إذ كان له الفضل في اكتساب خصال المتصوف، والنيل من تجارب الترحال، على خلاف غيره الذين عاشوا في بيئة منغلقة، غير منفتحة على علوم شتى، كما سمحت له الخلوة باكتساب بتوسيع مداركه، وإيقاظ بصيرته، وإنارة عقله، زيادة إلى الدور الذي لعبته الروايات الشفهية في جلساته مع أهل العلم، وهو ما جعل إقبال طلبه العلم على زاويته يوماً بعد يوم.

شغل فضاء الاستفتاح والاستعانة بباسم الله حيزاً من المعاني العظيمة التي ترغّب قارئ القصيدة في التدبّر، والتأمّل لما لها من أثر بالغ لعقد العزم في التبرّك من ربّ الملكوت، وإبعاد نزغ الشيطان؛ وفي هذا يقول:

بَدَأْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ قَصْداً لِنُجْحِ مَا أَرُومُ مِنْ اسْتِفْتَاكِ نَظْمِ الْقَصِيدَةِ.

(سيدي أعمر الشريف، 2013، صفحة 17)

يروم الشاعر تحصيل البركة، والنجاح بفضل الاستفتاح بباسم الله في تعظيمه إياه، إذ شغل هذا الحيز لديه قسطاً منقطع النظير؛ لما في ذلك من نيل الدرجات العلا عند رب الملكوت، حيث يظهر النّظام خاضعاً متدلاًّ، وهو على يقين

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

بتحصيل البركة وتحقيق النجاح في حياته وشؤونه الدنيوية، والأخروية التي أبقاها سرّاً، إذ يعدُّ ترفُّعه عن السفهاء احتساباً للأجر عند الله تعالى وحده دون سواه. اعتكف الناظم جانباً من الثناء على رسول الله والصلاة عليه؛ لما في ذلك من قيم أخلاقية تؤكد على موجبات النجاح في الأعمال الخيرة، كما أنّ ذلك من دواعٍ قبول الدعاء، واستجابته؛ وفي هذا يقول الناظم:

وأُهدي صلاةً ثُمَّ أَرْكَى تَجِيَّةً عَلَى الْمُجْتَبَى الْهَادِي شَفِيعَ الْبَرِيَّةِ.
صَلَاةً وَتَسْلِيماً كَثِيراً مُجَدِّداً إِحَاطَةً عِلْمِ اللَّهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ.

(سيدي أعمر الشريف، 2013، صفحة 17)

تعدّدت صيغ الصلاة على المصطفى - صلى الله عليه وسلم- مقرونة بإلحاح الناظم في ذلك، وهو ما يؤكد طلب البركة والنجاح من رب الملكوت؛ لذلك جعلها الناظم تريقاً، أظهر سروره، وتأهّب لنيل شفاعته سيد الخلق.

يتدرّج الناظم في موضوع الياقوتة وغرضها المحوري، الباعث على اكتشاف الهدف الأسمى من الخطاب، مشيراً إلى الإشادة بأخلاق المصطفين من العباد، ومحدّراً من بعض الشرور التي تؤدي بصاحبها إلى سدّ باب الفضل؛ وفي هذا يقول:

وَبَعْدُ فَفَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ بِمَحْضِ تَفَضُّلٍ وَمِنْ وَرَحْمَةٍ.
وَمَهْمَا اجْتَبَى عَبْدًا سَعِيداً لِقُرْبِهِ تَخَيَّرَهُ وَذَلِكَ لَيْسَ لِعِلَّةٍ.
وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ جَلَّ بِعَدْلِهِ وَيُحَرِّمُ فَيْضَ الْفَضْلِ مِنْ غَيْرِ قِلَّةٍ.

(سيدي أعمر الشريف، 2013، صفحة 17)

يُشترط في نيل فضل الله الإيمان، واتباع الصراط، لما في ذلك من مضاعفة الحسنات، ونيل أعلى الدرجات، فيتيسر العسير، وتُفكُّ العقدة، وتزول الكرب، ويزول الهم والحزن، وكلُّ ذلك ينجلي بغفران الذنوب، ومحو الخطايا، وتنزيه النفس عن صنائع النقصان؛ ومن ثمة يصطفيه الله، ويتخيّره ليحشره في صفوة

عباده الطيبين، فإذا انحرف العبد عن ذكره، وملازمة صراطه منعه من فضله، حتى يعود خاضعاً له وحده، لا لسواه.

يكشف الناظم سرّاً من الأسرار الدنيّة لتأخي المريد والشيخ في الله؛ إذ يجب على المتعلّم ألاّ يضلّ الطريق؛ تأدّباً مع الخالق، بالإضافة إلى تحاشي الزيغ عن طريقة شيخه، ومن ثمة يسلم فؤاده من الرجس، وفي هذا يقول الناظم:

فَصِرْنَا وَصَارُوا حِلْفَ صِدْقٍ وَوُدُنَا وَدَادَ النُّهَى ذَوِي الصُّدُورِ السَّالِمَةِ.
وَبَعْدُ تَعَاظِينَا الْمَوَائِدَ نَبْتَغِي فُنُونَ الْعُلُومِ يَا لَهَا مِنْ عَطِيَّةٍ.

(سيدي أعمر الشريف، 2013، صفحة 17)

بيّن الناظم رحمه الله مراتب ترقّيه في الأحوال والمقامات والمشاهدة، فذكر التلقين والتربية على يد شيخه وعلومها، وهي التي عبّر عنها بفنون العلم، ثم ذكر الأحوال وترقيته من شوق ومحبة؛ إذ تحصل بذلك نشوة منقطعة النظر. (طواهرية، فتح ملك الملوك- شرح تائية السلوك الشهيرة بالياقوتة، 2014، صفحة 19)

تتمظهر بعض أمارات التّجليّ في صدق القلب وصفائه، وطهارة النّفس من المعاصي، والخطايا، بالإضافة إلى التّفرُّغ إلى حب الذات الإلهيّة، ولذة المعرفة الرّبانيّة، والخلوّة في مجالس العلم والتّفقُّه فيها؛ بغية بلوغ أعلى مراتب الحكمة، والتّهلّ من علوم الآخرة دون عناء.

2.2 أحوال المتصوّف:

ينكشف مقام التّجلي في تعبير الناظم عن قوة بصيرته، وإيمانه بالطريق المستقيم، إذ يكون ذلك ببروز حقيقة الأشياء والموجودات لديه، وهذا ما يكشف عن طهارة الروح المتغيرة من حينٍ لآخر؛ لأنّ حالة المتصوف مقترنة بنواياه، الخفيّة عن غيره من أصحاب السلوك. وفي هذا يقول الناظم:

فَغِثْتُ عَنِ الْأَكْوَانِ طَرّاً بِأَسْرِهَا وَشَاهَدْتُ رَبَّنَا بَعَيْنِ الْبَصِيرَةِ.

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

وَمُنْدُ عَرَفْتُ الْحَقَّ غِبْتُ عَنِ السَّوَى وَلَمْ تَطِبِ النَّفْسُ إِلَّا بِرُؤْيَا.

وَمَهْمَا نَظَرْتُ كَانِنًا مَا بُعِيدَ مَا عَرَفْتُهُ لَمْ أُعِزَّهُ مِثِّي بِلَمَحَةٍ.

رَقِيتُ فَمَا الَّذِي يَفُوقُ مَقَامَنَا سَوَى السَّلَفِ الْأَخْيَارِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ.

كَذَا صَحْبُ خَيْرِ الْخَلْقِ قَارِؤُا بِرُتْبَةٍ تَقَاعَسَ عَنْهَا الْغَيْرُ مِنْ غَيْرِ مِرَّةٍ.

(سيدي أعمار الشريف، 2013، صفحة 18)

تتجلى ذروة التصوف في تعبير الناظم عن الفناء؛ إذ اعتزل جميع الأشياء ليعتكف في حب الذات الإلهية مستعيناً بقوة بصيرته، ثمّ راح يؤكد ذلك بملازمته طريق الحق، إذ يظهر له ربُّ الملكوت بعد أن رأى كلّ شيءٍ سواه باطلاً، وهو ما يزيده يقيناً وحلاوة في الإيمان المتعالية عن كلّ صغيرة من الصغائر، التي لا تتحقق إلّا لأهل الصّفاء الأطهار ومنهم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وهي نزعة من نزعات التّصوّف القاضية بتنزيه ذوي الفضائل عن سبل الضّلال.

«يُطلق الفناء على معنيين: أحدهما سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة. والثاني: الاستغراق في المشاهدة القلبية حتى لا يشعر بغير الله، ويغيب عن نفسه بالكليّة وهو انتهاء السّير إليه تعالى فيكون فانياً في الله باقياً به» (طواهرية، فتح ملك الملوك- شرح تائية السلوك الشهيرة بالياقوتة، 2014، الصفحات 21-22)

يُشترط في تحصيل الفناء ترك التّصابي، والابتعاد عن مظاهر السّفاهة والحمق؛ لما في ذلك من ذهاب الجلم والوقار اللذين هما تاج الشيخ، والمريد، كما يتوجب عليهما معرفة الله سبحانه وتعالى وقت الخلوة، بملازمة الأوراد والأذكار، واعتزال صنائع النقصان، زيادة إلى تفادي مصاحبة الفسّاق، والمتطرفين؛ لأن ذلك يدنّس الأعراض التي تتناقض مع أحوال المتصوّف.

«وتظهر العلاقة بين الفناء والحب في تعريف بعض الصوفية للحب بأنّه فناء البشريّة وبقاء الروحانيّة؛ ويقصد بالبشريّة ما يتصل بالنفس وقد يبدو هذا

من وجهة النظر الصوفيّة طبيعياً؛ لأن المثاليّة في الحب الصوفي هي أن يمثل الصوفي - في حدود طاقته وفي حدود ما يتفضّل الله به عليه- المكارم الإلهيّة، نابذاً وراء ظهره كلّ ما يمت إلى أنانيته أو رغباته العاجلة» (جعفر، 1970، صفحة 224)

يتوجب على المتفاني في حب الله الابتعاد عن الماديات؛ لكي لا تظهر في تفاصيل يومياته، ومن ثمة تتجلى في حواسه، فيصير عند الله مدموماً، إذ يُفترض عليه النظر في سماء الروح لتحقيق المشاهدة، وهكذا إلى أن يترأى له الخالق دون غيره، ومن ثمة يقوى إيمانه به بقدر ملازمة العقل، والبعد عن الدنيويات، إلى أن يصير أول طريقه وآخره رضوان الله سبحانه وتعالى.

يبتغي الصوفية «معينة مظاهر الوجود، ومشاهدة حقائقه كما هي، سواء أكان ذلك في أثناء عملية المجاهدة والعروج في المقامات والتّقلّب في الأحوال، أم عند الوصول إلى قمة هذا العروج الهرمي والانتها إلى حالة الفناء، أو الجمع المعبر عنها بمصطلح أعم هو: وحدة الشهود» (عودة، 2008، صفحة 73)

آمن الصوفيون بفكرة وحدة الوجود؛ لتأثرهم بمظاهر فلسفة الرّوح، إذ الموجود لدى المتصوفة هو الباقي سبحانه وتعالى، أمّا ما عداه فهو يسرح ويمرح في دنياه، وفي امتحان ربّاني الهدف منه: انتقاء العباد الصّالحين دون غيرهم، لكن المرح واللهو كليهما ينفر منه أهل الله وخاصته، فيقضون ليلهم نهارهم سعياً لابتغاء الوصول إلى طريق الله، فيُحصّلون من المكاسب ما لا يتوصّل إليه الخاص والعام، زيادة إلى الظفر بمواهب ربّانيّة شتى.

لكن وحدة الشهود تتحقق للذي سلك طريق المريد، والشيخ حتى يصل به المقام إلى أعلى ذروة المقامات، فيتعلّى بالأخلاق النبيلة، ويكتسب الطّباع الرّاقية، بفضل من الله، وكل ذلك جاء جراء تحرّر أهل الله من مظاهر الدُّنيا وفتنها الرّائلة، إذ أن تعظيم الخالق، والرّفّع من قدره كفيلاً بجعله الواحد الذي لا ثاني له في

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

عالم البقاء، أمّا ذلك فينعكس على صاحبه بنور ربّاني ظاهر بالدرجة الأولى على قسّمات وجهه، وكلّما آمن بهذا العالم الواسع، كلّما تجلّى له نورٌ عظيم يكشف له عن الغيبيات حتى تستنير بصيرته.

يتجلّى تَأدُّب النَّاظم مع الخالق في قوة إيمانه، والعمل بأوامره، واجتناب نواهيه، بالإضافة إلى الصبر على المكاره؛ بحيث يظهر ذلك في عمل القلب، واللسان، والجوارح، وفي هذا يقول الناظم:

وَلَكِنَّ جِلْبَابَ الْحَيَا وَتَأدُّبِي مَعَ اللَّهِ يَحْجُبَانِ تِلْكَ الْمَقَالَةَ.

(سيدي أعمار الشريف، 2013، صفحة 19)

عبر الناظم عن تأدبه مع الله؛ لما في ذلك من خصال المتصوف، إذ «ينحصر الأدب في خمسة أشياء: حفظ المريد الحرمة مع الله، وشكر النعمة التي أنعم بها عليه، وعلو الهمة، بحيث لا يكون له تعلُّق بشيء من النقائص وحسن الخدمة بلزوم الإتياع وترك الابتداع ونفوذ العزيمة بحيث لا يتراخى في محل التّشمير، ولا يركن لموطن التقصير، وهو مبنى على خالص التوحيد، (...) فالأدب يختلف باختلاف همم المتأدبين، فهو بالنسبة للمريدين رياضة النفوس بنور المتابعات، وتأديب الجوارح بحفظ الحدود وترك الشهوات» (طواهرية، فتح ملك الملوك- شرح تائية السلوك الشهيرة بالياقوتة، 2014، الصفحات 33-34)

يتمثّل الأدب مع الله في كيفية الوصول إليه سبحانه وتعالى، لكن ذلك كفيلٌ بلزوم طريق الله، واجتناب نواهيه، والامتثال لأوامره فإذا تجلّت الخشية، تحقق شكر النعمة، ومن ثمة تعلو الهمة، أمّا الأدب مع الله فهو مراتب لا يرقى لها ذوو قيل وقال؛ لأن العفة التي يتحلّى بها السالكون طريق الله تتناقض والأعمال الشّيطانية، فإذا سائر ذلك المريد أو الشيخ في طريقه تحقق له من الخير ظاهره، وباطنه ما لا تسعه مشارق الأرض، ومغاربها.

تنجلي للمتصوّف السَّيَرُ الحَسَنُ، التي يبتغي بفضلها الوصول إلى الله حسب درجة تأدّبه معه سبحانه وتعالى، إذ يكون منطلقها الأوّل انقياد المريد لشيخه، ومن ثمة التّسليم الذي يرى بفضلها حقّ الأهلية في شيخه؛ بحكم أنه لازمه في الأقوال والأفعال، فلا يعترض عليه، ولا يعصي له أمراً موجباً لمرضاة الله عزّ وجل، ومن ثمة ينال البركة من الخالق في كل شيء، وبذلك يكون قد نال مرضاته.

ومن كلّ هذا وذاك تتعالى هممه، وتزيد قوته الرّوحانيّة موازاةً مع عدم تعلّق قلبه بمغريات الدّنيا وشهواتها، وأول ذلك أن يترك السير في سبيل هوى النفس، ليأتي بعد ذلك تأديب الجوارح حسب الأحوال؛ إذ تنبثق آداب النفوس من مخالفتها، وترك أفعال الشيطان، وعدم الانقياد لأوامرهما؛ تفادياً لكيدهما وإصرافهما الذوات الطّاهرة للعواقب الوخيمة التي تتناقض مع الكشف الذي حبّاه الله به أهله، وخاصّته الأخيار؛ لأنهم حبذوا الغذاء الرّوحي من أورداء، وأذكار، وتحاشوا الغذاء البدني؛ إيماناً منهم أن هذا الأخير لا يحصل إلا بالأول الممنوح لهم جزاءً ورضواناً.

أشاد النّازم بقضية خيار الصّحب؛ إذ منحها بعداً راقياً لما فيها من تجلّيات كاشفة عن التّأثّر الرّوحي والافتداء العلمي الهادفان إلى ترك غريزة النفس، والالتزام بنقاء الروح، وفي هذا يقول النّازم:

وَأَيُّ سُلُوكٍ كَامِلٍ دُونَ صُحْبَةٍ وَأَيُّ اهْتِدَاءٍ شَامِلٍ دُونَ مَنَحَةٍ.

وَأَيُّ طَرِيقٍ رَاشِدٍ غَيْرُ رُشْدِنَا وَأَيُّ اهْتِمَامٍ الْوَقْتِ مِنْ غَيْرِ هَمَّةٍ.

(سيدي أعمر الشريف، 2013، صفحة 21)

يركز النّازم على الصّحبة النّافعة، لما يتصف أصحابها من صفات، بادية في تذكير بعضهم البعض بوجود الله، والعمل بأوامره واجتناب نواهيه «فالعارفون تتلبس ظواهرهم بالأوامر، والأفعال الشرعيّة، ويعلمون أنهم ظروف لإجرائها لا

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

فاعلون لها، فلذا لا يرجون بما يُنسب إليهم من الأفعال حصول خير ولا دفع شر»
(الأمير، 2004، صفحة 97)

يعتكف الصُوفيون طريق الله بالإعراض عن زينة الدُّنيا، فينفردون عن الخلائق والموجودات؛ وأوّل ذلك أن يختاروا الأصحاب، فيعرفون الغث والسمين، والطالح والصالح، كما تصفو قلوبهم ونفوسهم من الأحقاد، والأمراض والخبائث، لما في ذلك من انعكاسات إيجابية بادية في أخلاق الإنسان، وسلوكاته المكتسبة بفضل التأثر الرُّوحي، والعقيدة الصحيحة، ولعلّ خير شاهد على ذلك ما يتجلّى في أخلاق الصحابة -رضوان الله عليهم- التي نالوها بفضل تأثرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلم، فهو الذي صحّح مساراتهم، وأرشدهم إلى الخيرات أجمعها. تعدّد الدعوة إلى اجتناب اللهو، من الأمارات القاضية بتركيب النفوس وتنزيهاها عن الاعتقادات المشينة، واقترن ذلك بصبر الناظم وتجلّده على المكاره، وفي هذا السياق يقول:

وَيَا حَبِيبَةَ الْمَشْغُولِ عَنَّا بِلَهْوِهِ فَأَضْحَى بُعِيدَنَا سَرِيعَ النَّدَامَةِ.

وَيَا حَسْرَةَ الَّذِينَ دَانُوا بِبُعْدِنَا إِلَى أَنْ تَجَرَّعُوا كُؤُوسَ الْمَنِيَّةِ.

سَيَسْقُطُوا فِي أَيْدِي الْخَوَالِفِ بَعْدَنَا لِمَا فَرَّطُوا فِي أَخْذِهِمُ لِلطَّرِيقَةِ.

(سيدي أعمر الشريف، 2013، صفحة 21)

ذَمَّ النَّاْظِمُ الْمُنْشَغَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، إِذْ تَوَعَّدَهُ بِالْخِيْبَةِ مِنْدِرًا إِيَّاهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ، فَتَظْهَرُ صِفَةُ هَؤُلَاءِ الْبَشَرِ فِي لَهْوِ الدُّنْيَا، وَالِابْتِعَادِ عَنِ الْآخِرَةِ بِالْانْهَمَاكِ فِي تَحْصِيلِ اللَّذَاتِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الْغَفْلَةِ عَمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمِنْ ثَمَةِ انْغَمَسُوا فِي طَاعَةِ رُؤُوسِ الضَّلَالِ. (طواهرية، فتح ملك الملوك- شرح تائية السلوك الشهيرة بالياقوتة، 2014، صفحة 78)

يقود الانشغال عن ذكر الله إلى مظاهر الخيبة المتجلية أساساً في غلبة الهوى والنفس على صاحبها؛ إذ لا بدّ من ترويضها على الطاعات، والفضائل،

وعدم التفكير في الخسران، زيادة إلى تركيتها بالأقوال والأفعال الخيرة، والابتعاد عن الفراغ، وسدّه بملازمة الذكر، والتأمل في الصفات والأحوال لمحاسبة الدّوات، وقيادتها نحو طريق الحق، ومن ثمة تمجيد الله سبحانه وتعالى، والانصراف عن الذنوب، والشّهوات، ظاهرها وباطنها.

اشترط الناظم شرط الخلود في الحضرة؛ لينتهج المريد طريق شيخه في العادات، والعبادات، إذ يُشترط أن يتعلق قلبه بالخالق دون سواه، بالإضافة إلى تطهير النفس من الوسواس الشيطانية، وهو تحصيل حاصل لرفع قدراته الروحية، وزيادة هممه رغبة لا متناهية لأداء الواجبات؛ وفي هذا يقول:

كَذَا مَنْ عُرِفَ بِالْفُسُوقِ وَنَحْوَهَا يُجَازَى بِفِعْلِهِ الْقَبِيحِ وَلَعْنَةٍ.
فَلَمْ يَمْتَثِلْ أَمْرًا وَلَمْ يَجْتَنِبْ نَهْيًا وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُؤَلَّى حَيْثُ السَّرِيرَةِ.
حَرِيصٌ عَلَى دُنْيَاةٍ لَاهٍ مُكْثِرٍ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ ذُو عُثْلَةٍ.

(سيدي أعمر الشريف، 2013، صفحة 22)

توعّد الناظم الفاسق باللعة، لما يراه من تفريط في جنب الله، وعدم الامتثال لطاعته، ورضوانه، إذ لا يحصل له الخير، ولا يتحقق له دعاء، أو رجاء مادام منصرفاً عن أوامره؛ وكلّ ذلك قاضٍ بإرجاعه إلى عين الصّواب، إذ لا يحصل المبتغى إلّا بتصحیح العقيدة الربّانية التي بها يعرف ما له، وما عليه.

3. الياقوتة وطهارة الروح:

1.3 دعائم الطهارة الروحية: اشترط الناظم شرط الابتعاد عن الضلال وظلم

أهل الله؛ ليتنزه المريد عن صنائع النقصان، إذ يجب عليه ألا ينكر دور شيخه في الترغيب في الفضائل، والتنفير من الرذائل، ويبدو ذلك في تعبيره:

وَمَنْ يَنْسِبَنَّ إِلَيْنَا غَيْرَ مَقُولَنَا تُصِيبُهُ بِحَوْلِ اللَّهِ أَكْبَرُ عِلَّةٌ.
وَمَوْتُ عَلَى خِلَافِ دِينِ مُحَمَّدٍ وَيَبْتَلِيهِ الْمُؤَلَّى بِفَقْرٍ وَقِلَّةٍ.

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

وَبَطَّشَ وَشِدَّةَ انتِقَامٍ وَذَلَّةَ "وَيَرَدُّعُهُ رَدْعاً سَرِيعَ الإِجَابَةِ. (سيدي أَمَر الشَّريف، 2013، صفحة 23)

تَضَرَّرَ سيدي الشيخ في بلاد فجيج بعدما أنشأ زاوية بإذن شيخه سيدي محمد بن عبد الرحمان السَّهلي إذ انشغل بالنظر في الشريعة، ملتزماً حدود الله وخلال هذه الفترة تعرض لمضايقات وتعسفات من بعض أهل هذه المنطقة، فصبر على ذلك لالتزامه بشيم أولياء الله، ولكن هؤلاء الحاسدين أصروا على منازعته، وشتمه، ووصف سيرته، وطريقته بالصفات الذميمة، وهو ما يظهر في تفويض أمره لله داعياً عليهم ومتوعدهم بغضب الله سبحانه وتعالى. (بن زيان، 2006، الصفحات 94-95)

تتجلى دلائل الخير وأعظمها في انفراد النَّاظم بصنع سبيل يمجد الشريعة الإسلامية، منوهاً بالالتزام بحدود الله، وأول طريقه في ذلك ينطلق من التَّشَبُّثِ بطهارة الرُّوح، إذ أغناه الله عن الانهيار بالثاء المادي، فلبس لباس الأخيار، والتزم بشيم الأولياء، الذين صفت قلوبهم، وابتعدوا عن الوسواس الشَّيطانيَّة، فلازم الشرع حتى استنارت بصيرته، بامتلاك مظاهر الشهود أجمعها، وكسب الفضائل التي لا تُعطى إلا لأهل الله وخاصته.

اعتكف النَّاظم القول في التوبة ولزوم طريق الفلاح بالإشارة إلى التَّقَرُّبِ من الله، وذلك بفطام النفس عن الرجوع إلى اقتراف الذنوب؛ لأن الانقطاع عن الذنب يقتضي اعتزاله كلياً؛ إذ أَكَّدَ النَّاظم على ذلك في قوله:

بِدَايَتِهَا لِلْغَافِلِينَ بِتَوْبَةٍ وَأَشْرَاطُهَا مَحْصُورَةٌ بِالتَّثَبُّثِ.
وَنُصِّحَ لِذَيْنِ اللَّهِ ثُمَّ رَسُولِهِ وَخَاصَّتِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِجُمْلَةٍ.
وَتَطْيِيبُ لُفْمَةٍ وَتَعْظِيمُ حُرْمَةٍ وَشُكْرُ لِنِعْمَةٍ وَرَفْعُ لِهَمَّةٍ.

(سيدي أَمَر الشَّريف، 2013، صفحة 23)

يتجلى وقوف الناظم وثباته على كلمة الحق في مجاهدة النفس واتباع شرع الله؛ لما في ذلك من سعادة في الدارين؛ إذ تقترن طاقة المجاهدة البدنية التي يمنحها المريد بالطاقة الروحية التي يمده الخالق بها جزاء فعله، زيادة إلى نيل محبته، ورفعته إلى مرتبة النُّسَّاك والصالحين الخالدين في الحضرة الإلهية، وفي هذا يقول الناظم:

وَجِدْ قَوِيَّ وَاجْتِهَادٌ مُوَافِقٌ وَصَوْمٌ وَسَهْرٌ ثُمَّ صَمْتُ وَعَزْلَةٌ.

(سيدي أعمار الشريف، 2013، صفحة 24)

يظهر صدق النَّاظم في اقتران التوبة بالحزن على التفریط في جنب الله، فهو صاحب النفس الخيرة المطمئنة الرافضة للتهاون في أداء العبادات، وفي هذا يقول:

وَحُزْنٌ وَدَمْعٌ سَاكِبٌ ثُمَّ لَوْعَةٌ وَشَغْفٌ قُلُوبِ الْوَالِهِينَ بِزَفْرَةٍ. (سيدي أعمار الشريف، 2013، صفحة 24)

اقتترنت التوبة بالحزن؛ لخشية الشيخ من الله، والخوف من التفریط في جنبه، زيادة إلى التحلي بلباس الصوفية، بالإضافة إلى أن «التصوّف هو الظمأ إلى المعرفة، على تعداد ألوانها، وصورها، الظمأ إلى المثالية في علوم الدين (...)» التي غايتها الله سبحانه المعبود الواجب الوجود، المحب المحبوب، واهب الحياة وربها، وقيوم السماء وعمادها، يذهب الصوفي إليه بقلبه وروحه ووجدانه، فهو أبداً الدّآكر الراكع السّآجد الفاني في الطاعة والمحبة، المراقب لله في كلّ حالاته، كأنه يرى الله مشاهدة مبصرة، فإذا لم يكن يراه فإنَّ الله يراه، ويعلم سره ونجواه» (سرور، 2014، صفحة 65)

تتعلق خشية الله بتعظيمه أولاً، ثم التدبُّر في أسمائه وصفاته، فلا يصح إيمان العبد، ولا تثبت استقامته إلّا بمعرفته الواحد الأحد؛ لأن ذلك قاضٍ بعدم مقارنته بأحد من الخلق في الأسماء والصفّات، التي تنفرد بها، فإذا وُصفت الخلائق بالعلم فهو الخالق الذي له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وفي السر

مظاهر التربية الروحية في مضمون نص الياقوتة الصوفية.

والعلانية، لكن المعرفة تختلف من متصوف لآخر باختلاف تأديهم مع الله، والسير على طريق شيخه الذي اقتفى طريقه، وروى عنه الأذكار، والأوراد، إذ لابد من سلامة القلب، واللسان من الأعمال الشيطانية؛ لتتضح درجات المشاهدة.

2.3 كمال المتصوف:

ينطلق المتصوف في دلائل كماله من فطام النَّفس ولزوم الصراط؛ لأن وصول المراد عند أهل التَّصَوُّف مرهونٌ بالتأمل في عالم الملكوت باستحضار الحس والترقب في محاسبة الذات بالصبر على المكاره، وتفادي الوقوع تحت رغباتها وشهواتها وقت الخلوة، وفي هذا السياق يقول النَّاظم:

وَمِنْ بَعْدِ غَيْمٍ جَاءَ صَحْوُ سَمَاءِهَا بِإِشْرَاقِ شَمْسٍ بِالْمَعَارِفِ حُقَّتْ. (سيدي أعمار الشريف، 2013، صفحة 24)

تعدُّ ملازمة الأوراد والأذكار في إبداع المتصوفة حلية يتحلَّى بها المريد بالأخذ عن شيخه، والسير على منواله في قول الحق، وردِّ الباطل، بالإضافة إلى نبذ الأهواء المشينة، وفي هذا السِّياق يقول النَّاظم:

كَذَا نِسْبَةُ الْأَبْرَارِ مَعَ صَفْوَةِ الْمَلَا لَهَا شَرَفٌ يُنْهَى لِعِزٍّ وَرِفْعَةٍ. (سيدي أعمار الشريف، 2013، صفحة 25)

يُصْطَلَحُ على مفهوم العناية الإلهية، مفهوم الكسب، أو الجذب؛ إذ يشعر العبد بحماية ربانية تدفع عنه الشرور والنكبات، فلا يكاد يشعر بضيق أو شظف عيش، كيف لا وهو منقطع عن مغريات الدنيا وشهواتها، وفي هذا السِّياق يقول صاحب الياقوتة:

عَنِ الشَّيْخِ شَيْخِ الْكُلِّ سِرِّ هُدَاهِمَ إِمَامَ كَفَيْضِ الْبَحْرِ مِنْ خَيْرِ قُدُوةٍ
بِهِ يَسْتَعِثُّ الْكُلُّ شَرْقاً وَمَغْرِباً أَبِي حَامِدِ الْغَزَالِيِّ عَيْنِ الْعِنَايَةِ.

(سيدي أعمار الشريف، 2013، صفحة 26)

يهدف صاحب الياقوتة إلى توعية الشباب المسلم، والتحذير من غفلة الشَّبَاب؛ بإبراز محاسن الشَّيْوخِ الأَجَلَاءِ وتعداد مناقبهم الرفيعة، إذ تتجلى الرفعة في تسمية القصيدة التي رسمت مناهج، وسَيَّرَ أولئك البررة الأطهار.

يتحقق مفهوم التصوف لدى الشيخ أبي حامد الغزالي بأنه: «طرح النفس في العبوديّة، وتعلّق القلب بالربوبية، فإنّه تصفية القلب عن مرافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصّفات البشرية، ومجانبة الدواعي النقائية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلّق بالعلوم الحقيقة، واتّباع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الشريعة» (الغزالي، 1924، صفحة 143)

تعلّق الصوفيون بالله سبحانه وتعالى بالتَّحَرُّر عن كلّ مظاهر الشين، فزينوا رقابهم، ونفوسهم بحاسبة الدّوات، وقيادتها إلى مرضاة الله عز وجل، فيخلدون في النور القدسي، ويقابلون الحقائق بالعقل، فيبتعدون كلّ البعد عن حضيض المادة، والشهوة؛ بغية الوصول إلى أعلى المراتب التي بها يدركون الرّوحانيات، إذ العبودية لديهم تكون بالأرواح لا بالأبدان؛ لأن هذه الأخيرة عاملٌ من عوامل التّرائّي، إذ يشترط في القلوب عدم تعلّقها بما في البريّة، من مظاهر ومغريات، ومفاتن.

4. خاتمة:

عالجت الياقوتة بعض مظاهر التَّصَوُّف الكفيلة بخلق مناخٍ هادفٍ إلى الكشف عن خط التَّماس بين الطهارة الروحية وتأدب الشيخ والمريد مع الخالق؛ ومنها: الشوق، المحبة، الأحوال، المقامات، المشاهدة، التَّجَلِّي، الفناء، وحدة الشهود، وكلُّ ذلك إقرار بوجود الله ووحدانيته، وتعظيمه القاضي بتوسيع دائرة الإيمان، وكمال الأخلاق، واتباع طريق الحق، والهدى.

اقترن تمجيد طهارة الروح بالتوبة ولزوم طريق الله؛ لما في ذلك من دعوة صريحة للتأمل في عالم الملكوت، والخشية من الله؛ لأن العناية الإلهية لا تحقِّق إلَّا باتحادهما، لأنهما ثمرة الاستعانة بباسم الله الذي عبَّر عنه النَّاطِم في مستهل القصيدة المسماة بالياقوتة.

تكشف خصال المتصوف عن تأخي المريد والشيخ في الله؛ وهي سنة من السنن الحميدة التي رسمت جانباً من الطريقة الشيخية في تأديب طلبة العلم، ونشر الوعي في أوساطهم، وكلُّ ذلك دعوة صريحة إلى القدوة الحسنة، وفعل الخير، وإنفاق العلم من غير مقابل، كما كان لها الفضل في التأثير بأهل الله وخاصته؛ قصد غرس قيم الشريعة الإسلامية، الدَّاعية إلى تفادي الفجور، وعدم التقوُّل على الشيوخ، واتِّهامهم بما ليس فيهم.

يجب على المتصوف اعتكاف العبادة بتمجيد الحياة الأخروية، ونهج سبيل الصَّالحين، بالإضافة إلى الخلوة ودورها البارز في اكتساب العلوم، وتوسيع المدارك.

يفترض بأهل التَّصَوُّف وخاصته السعي إلى تمجيد لغة الحوار بين الحضارات؛ لرسم طريقة كلِّ منهم من جهة، ولنشر الوعي، والترغيب في شرع الله، والتعطش إلى معرفته، وخشيته في السر والعلانية من جهة أخرى، وهكذا يقربون

إلهم فئات الاتجاه المعاكس التي ينوي حصول النقص في غالب الأحيان، وبفضل هذا يكونوا قد بينوا جانباً مظلماً من حياة المنحرفين.

تعدُّ المناوشات التي قامت بين سيدي الشيخ السماحي، وبعض أهل زمانه باعثاً للنظر في مراجعة بعض المكامن التي انبنت عليها الطريقة الشيخية؛ وإن تقول عليه السقهاء، يجب على المتفقيهيين الإيمان بوجود جانب خفي لأهل الله وخاصته، هو من شأن أسرارهم التي لا يعرفها غير الله، زيادة إلى نفي الاعتقاد الجازم في اتهام الشيوخ؛ سعيّاً وراء دعوة الناشئة إلى ملازمة خصالهم، والعمل بمناقبهم.

يستحسن من المريين تجاوز الزلات عن المريدين؛ تفادياً للانحراف والضلال اللذين قد يؤديان إلى علمنة الفكر، فتنتشر الأغلاط بين غرض التصوف، وشق الأغراض التي تتناقض وطهارة الروح؛ إذ سعى ناظم الياقوتة إلى تفعيل تلك المظاهر لتتعاين أفكار الحضارات، وتتماشى مع تعاليم الدين الإسلامي الذي يتناقض وتشدد بعض المتعطرسين في تربية النفوس، إذ لابد من الإيمان بتعايش راهنية الحال مع مقتضى فئة الشباب؛ تفادياً لحدوث صراعات بين الأديان المقدسة، وأفكار الغرب في تضليل العامة بتوجهات سلبية شتى.

5. قائمة المراجع:

- أبو حامد الغزالي. (1924). روضة الطالبين وعدة السالكين (الإصدار د. ط). القاهرة: دار السعادة.
- أمين يوسف عودة. (2008). تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية (الإصدار د. ط). الأردن: عالم الكتب الحديث.
- سليمان بن زيان. (2006). بوداود السماحي والزاوية السماحية (الإصدار د. ط). بجاية (الجزائر): مطبعة تلاتيقيت.
- طه عبد الباقي سرور. (2014). محي الدين بن عربي (الإصدار 02). القاهرة: مؤسسة هنداي للتعليم والتعلم والثقافة.
- عبد الرحمان ابن خلدون. (1989). المقدمة (الإصدار 07). بيروت: دار القلم.
- عبد القادر بن محي الدين الأمير. (2004). المواقف الروحية والفيوضات السبوحية (الإصدار 01). بيروت: دار الكتب العلمية.
- عبد القادر خليف. (2006). الطريقة الشيخية (الإصدار د. ط). وهران (الجزائر): دار الأديب للنشر والتوزيع.
- عبد الله طواهرية. (2008). امتاع القراء بشرح الياقوتة والحضرة الغراء (الإصدار 02). وهران (الجزائر): دار الأديب للنشر والتوزيع.
- عبد الله طواهرية. (2014). فتح ملك الملوك - شرح تائية السلوك الشهيرة بالياقوتة (الإصدار د. ط). أدرار: د. د.
- محمد كمال إبراهيم جعفر. (1970). التصوف - طريقاً وتجربة ومذهباً (الإصدار 01). القاهرة: دار الكتب العلمية.
- ناصر بونيف سيدي أعمر الشريف. (2013). كؤوس التداني ورياض التهاني فيما حوى ياقوت سيدي الشيخ السماحي من روائع المعاني (الإصدار د. ط). تلمسان (الجزائر): نشر ابن خلدون.